الباب الخامس

دليل الآخرة

من أهم الحقائق التي يدعونا الدين إلى الإيمان بها: فكرة الآخرة.

والمراد بها: أن هناك عالماً آخر غير عالمنا الحاضر؛ وسوف نعيش في ذلك العالم خالدين؛ وأن عالمنا هذا هو مكان للاختبار والابتلاء، وجد فيه الإنسان إلى أجل معلوم؛ وأنَّ الله سوف ينهي هذا العالم حين يحين أجله، لبناء العالم الآخر، على طراز جديد؛ وأنَّ الناس سوف يبعثون مرة أخرى؛ وسوف تعرض أعمالهم - خيراً أو شراً - على محكمة الله الذي يجزي كل إنسان بما عمل في الحياة الدنيا.

أهذه النظرية صحيحة؟ أم هي باطلة؟ وهل هناك إمكان لهذه الآخرة؟... سوف نعرض هنا بعض جوانب القضية.

أولاً: إمكان الآخرة:

ليكن الجانب الأول من هذا العرض، هو البحث عن «إمكان» وقوع الآخرة. فهل هنالك وقائع وإشارات تصدق هذه الدعوى؟

إن فكرة (الآخرة) تقتضي - أول ما تقتضي - ألا يكون الإنسان والكون، في شكلهما الحالي، أبديين، وقد علمنا في الصفحات الماضية - بما لا يدع مجالاً للشك - أن أبدية الكون والإنسان مستحيلة، وأيقنّا يقيناً لا يتزعزعُ أنَّ الإنسانَ يموت، وأن الكون سينتهي طبقاً لقانون «الطاقة المتاحة». ولست أدري إذا ما كان هناك طريق للنجاة من هذه النهاية المروّعة.

❖ ❖ ❖

1 ـ مسألة الموت:

إن الذين لا يؤمنون بالعالم الثاني ـ الآخرة ـ يحاولون بدافع الغريزة أن يجعلوا من هذا الكون عالماً أبدياً لأفراحهم ، ولذلك بحثوا كثيراً عن أسباب «الموت» ، حتى يتمكنوا من الحيلولة دون وقوع هذه الأسباب ، من أجل تخليد الحياة ، ولكنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً ، وكلما بحثوا في هذه الموضوع ، رجع إليهم بحثهم برسالة جديدة عن حتمية الموت ، وأنه لا مناص منه .

«لماذا الموت» . . هناك ما يقرب من مائتي إجابة عن هذا السؤال الخطير ، الذي كثيراً ما يطرح في المجالس العلمية ، منها :

(فقدان الجسم لفاعليته) ، (انتهاء عملية الأجزاء التركيبية) ، (تجميد الأنسجة العصبية) ، (حلول المواد الزلالية القليلة الحركة ، محل الكثيرة الحركة منها) ، (ضعف الأنسجة الرابطة) ، (انتشار سموم «بكتريا» الأمعاء في الجسم) . . . وما إلى ذلك من الإجابات التي تتردد كثيراً حول ظاهرة الموت .

إن القول بفقدان الجسم لفاعليته جذاب للعقل . . فإن الآلات الحديدية و الأحذية والأقمشة كلها تفقد فاعليتها بعد أجل محدود ، فأجسامنا أيضاً تبلى وتفقد فاعليتها ، كالجلود التي نلبسها في موسم الشتاء . ولكن العلم الحديث لا يؤيدنا ، لأن المشاهدة العلمية للجسم الإنساني تؤكد : أنه ليس كالجلود الحيوانية ، والآلات الحديدية ، وليس كالجبال . . وأن أقرب شيء يمكن تشبيهه به هو ذلك (النهر) الذي لا يزال يجري منذ آلاف السنين على ظهر الأرض ، فمن ذا الذي يستطيعُ القول بأنَّ النهر الجاري يبلى ويهن ويعجز؟! بناءً على هذا الأساس يعتقد الدكتور «لنس بالنج[1]» أن الإنسان أبديٌّ ، إلى حد كبير ، نظرياً ؛ فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائياً ! وبرغم ذلك فإنَّ الإنسان يعجزُ ويموت ، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحيّر العلماء .

❖ ❖ ❖

(1) وهو حائز على جائزة نوبل للعلوم .

إن جسمنا هذا في تجدد دائم. وإن المواد الزلالية ، التي توجد في خلايا دمائنا ، تتلف كذلك ثم تتجدد؛ ومثلها جميع خلايا الجسم ، تموت وتحل مكانها خلايا جديدة ، ؛ اللهم إلا الخلايا العصبية. وتفيد البحوث العلمية أن دم الإنسان يتجدد تجدداً كلياً خلال ما يقرب من أربع سنين ، كما تتغير جميع ذرات الجسم الإنساني في بضع سنين. ونخرج من هذا بأن الجسم الإنساني ليس كهيكل ، وإنما هو كالنهر الجاري ، أي أنه «عمل مستمر». ومن ثم تبطل جميع النظريات القائلة بأن علة الموت هي وهن الجسم وفقده لقوته ؛ فإن الأشياء التي فسدت أو تسممت من الجسم أيام الطفولة أو الشباب قد خرجت من الجسم منذ زمن طويل ، ولا معنى لأن نجعلها سببَ الموت ، فسببُ الموت موجودٌ في مكانٍ آخر ، وليس في الأمعاء والأنسجة البدنية والقلب.

❖ ❖ ❖

ويدعي بعض العلماء أن الأنسجة العصبية هي سبب الموت لأنها تبقى في الجسم إلى آخر الحياة ولا تتجدد. ولو صح هذا التفسير القائل بأن النظام العصبي هو نقطة الضعف في الجسم الإنساني ، فمن الممكن أن نزعم أن أي جسم خال من (النظام العصبي) لا بد أن يحيا عمراً أطول من الأجسام ذات النظام العصبي ، ولكن المشاهدة العلمية لا تؤيدنا ؛ فإن هذا النظام لا يوجد مثلاً في الأشجار وبعضها يعيش لأطول مدة ، ولكن شجرة القمح التي لا يوجد بها هذا النظام العصبي لا تعيش أكثر من سنة ، وليس في كائن «الأميبا» جهاز عصبي ، وهي مع ذلك لا تبقى على قيد الحياة أكثر من نصف ساعة. ومقتضى هذا التفسير أيضاً تلك الحيوانات التي تعد من (نسل أعلى) ، والتي تتمتع بنظام عصبي أكمل وأجود ، لا بد أن تعيش مدة أطول من تلك التي هي أحقر نسلاً وأضعف نظاماً. ولكن الحقائق لا تؤيدنا في هذا أيضاً ؛ فإن السلحفاة والتمساح وسمكة«باتيك» أطول عمراً من أي حيوان آخر ، وكلها من النوع الثاني حقير النسل ، وضعيف النظام.

❖ ❖ ❖

لقد أخفقت تماماً تلك البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقيني، يمكنُ ألا يقع، فبقي الاحتمال، الذي أكدته الأزمان، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر، وفي أي زمن، ولم نستطع العثور على أي إمكان يمنع الموت، رغم جميع الجهود.

لقد بحث الدكتور «الكسيس كيرل» هذه المشكلة في مقال طويل بعنوان «الزمن الداخلي»، فذكر الجهود المخفقة التي بذلت في هذا الصدد، ثم قال:

«إن الإنسان لن يسأم أبداً من البحث عن (الخلود) والسعي وراءه، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد؛ فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة، إنه يستطيع أن يوقف الزمن (الفسيولوجي) لأعضاء الجسد، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً[1]».

❖ ❖ ❖

2 ـ ظواهر وأمثلة طبيعية:

في ضوء هذه الوقائع لم تعد مسألة نهاية العالم غير مفهومة؛ فنحن على علم بالقيامات الصغرى التي تقع على سطح الأرض، وهي التي ستحدث مرة أخرى على نطاق أوسع، حتى تشمل الأرض المأهولة كلها.

إن الظاهرة الأولى التي تنذرنا بإمكان القيامة هي الزلازل.. فبطن الأرض يحتوي على مادة شديدة الحرارة، نشاهدها عندما ينفجر البركان، وهذه المادة تؤثر على الأرض بشتى الطرق، فمنها ما تصدر عنه أصوات مروعة رهيبة، وما نحس به من الهزات الأرضية، التي نسميها «الزلازل» إنها لا تزال كلمة رهيبة في حياة الإنسان المعاصر، رغم تقدم العلوم والتكنولوجيا، كما كانت رهيبةً في حياة الإنسان القديم. هذه الزلازل هي حَمْلَةُ الطبيعة ضد الإنسان، الذي لا يملك إزاءها شيئاً، فالخيار كله في يد الفريق الأول. إن الإنسان لا يملك شيئاً يقاوم به الزلازل، فهي نذير يذكرهُ دائماً بأنه يعيش فوق مادة حمراء ملتهبة جهنمية، لا يفصله عنها سوى قشرة جبلية

---

(1) Man the Unknown, p. 175.

رقيقة، لا يزيد سمكها عن خمسين كيلومتراً، وهذه القشرة ليست، بالنسبة إلى الكرة الأرضية، إلا كالقشرة من ثمرة التفاح..

يقول عالم الجغرافيا (جورج جاموف): «إن هناك جهنم طبيعيةً تلتهب تحت بحارنا الزرقاء، ومدننا الحضارية المكتظة بالسكان، وبكلمة أخرى: نحن واقفون على ظهر لغم (ديناميت) عظيم، ومن الممكن أن ينفجر في أي وقت، ليدمر النظام الأرضي بأكمله[1]».

وهذه الزلازل تجتاح جميع نواحي الأرض، ولا تخلو الجرائد أي صباح من أخبارها، ولكن يكثر وقوعها في الأماكن التي توجد بها البراكين لاعتبارات جغرافية. وأقدم زلزال رهيب سجله التاريخ هو زلزال إقليم (شنسى) الصيني، الذي وقع عام 1556م. ولقي أكثر من 8.000.000 نسمة مصرعهم في هذه الكارثة. وقد وقع زلزال في «لشبونة» عاصمة البرتغال عام 1755م، فدمر المدينة كلها، وأباد ثلاثين ألفاً من الناس في ست دقائق وقد قيل: إنَّ هذا الزلزال هزَّ ربع أوربا. ومن هذا النوع من الزلازل ما وقع في ولاية (آسام) الهندية عام 1897م؛ وهو يعد من الزلازل الخمسة الكبرى في التاريخ، فقد أحدث دماراً وخراباً عظيمين في منطقة كبيرة من شمالي الهند، كما غير اتجاه النهر العملاق (برهام بوترا)، وطفرت هضبة (ايفرست) بجبال الهملايا، فارتفعت مائة قدم!.

إن هذه الزلازل (قيامة) على نطاق واسع.. فعندما تنفجر الأرض بصوتها المخيف، ودويها الرهيب، وعندما تتساقط الجدران، وسقف الأبنية المسلحة الفخمة، حتى كأنها أوراق «الكوتشينه»، وعندما يصبح أعلى الأرض أسفلها، وأسفلها أعلاها، وعندما تحل الخرائب الموحشة محل المدن العامرة الكبرى في ثوان معدودة، وعندما تسير طوابير النعوش وتتراكم على ساحات المدن وطرقها تراكم الأسماك على ساحل البحر ـ فتلكم هي قيامة الزلزال..

---

(1) Biography of the Earth, p. 62.

وفي تلك اللحظة يشعر الإنسان بعجزه أمام قوى الطبيعة، فإن الزلازل لا تقرع أبواب المدن إلا بغتة، دون سابق إذن أو إنذار، والبلية كل البلية في أن الإنسان لا يستطيع أن يتنبأ بمكان الزلازل، ولا بموعد وقوعها، وهي في نفسها تنبئ عن قيامة كبرى، سوف تفجؤنا غداة يوم، على غرة منا. إن هذه الزلازل دليل ناطق بأن خالق الأرض قادر على تدميرها، كما يشاء.

❖ ❖ ❖

وهذه هي حال الفضاء الخارجي؛ فالكون فضاء لا حدود له، تدور فيه نيران هائلة لا حصر لها، هي (السيارات والنجوم)، ومثالها كملايين الخذاريف[1] التي تدور على سطح معين بأقصى سرعة يمكن تخيلها.. وهذا الدوران يمكن أن يتحول في أي يوم إلى صدام عظيم لا يمكن تصوره. وفي تلك اللحظة الرهيبة يكون ما في الكون أشبه بآلاف من القاذفات النفاثة المليئة بالقنابل النووية، وهي تواصل رحلتها في الجو، تصطدم كلها مرة واحدة!! إن اصطدام الأجرام السماوية ليس بغريب مطلقاً، بل الغريب حقاً هو عدم وقوع هذا الاصطدام؛ فدراسة علم الفلك تؤكد إمكان اصطدام الأجرام السماوية، والحديث عن وجود النظام الشمسي يدور حول وقوع صدام كبير بين بعض الأجرام السماوية قديماً؛ فإذا استطعنا أن نتصور هذا التصادم على نطاق أوسع لاستطعنا أن نفهم جيداً ذلك (الإمكان) الذي نحن بصدده.. فهذا الواقع هو بعينه ما نسميه.. «القيامة».

إن فكرة (الآخرة) التي تقرر أن نظام الكون الموجود حالياً سوف يدمر يوماً، لا تعني سوى أن واقع الكون، الذي نشاهده في صورة صغيرة أولية، سوف يتجلى يوماً في صورة نهائية كبرى. فالقيامة حقيقة معلومة في أعماقنا، ونحن اليوم نعرفها في حد (الإمكان)، ولسوف نلقاها غداً في صورة الواقع.

❖ ❖ ❖

(1) جمع خذروف، وهي لعبة من الخشب، مخروطية الشكل، يسميها الأطفال (النحلة) المراجع.

3 ـ الحياة بعد الموت:

المسألة الثانية في هذا البحث هي مسألة الحياة بعد الموت.

«هل هناك حياة بعد الموت»؟؟ هذا سؤال يتردد دائماً في العقل الحديث، ثم يستطرد قائلاً: «لا... لا حياة بعد الموت، لأن الحياة التي أعرفها لا توجد إلا في ظروف معينة من تركيب العناصر المادية. وهذا التركيب الكيماوي لا يوجد بعد الموت، إذن: فلا حياة بعد الموت».

ويعتقد «ت. ر. مايلز» بأن: «البعث بعد الموت حقيقة تمثيلية، وليس بحقيقة لفظية». ثم يضيف قائلاً:

«إنها قضية قوية عندي أن الإنسان يبقى حياً بعد الموت، وهذه القضية من الممكن ـ لفظياً ـ أن تكون حقيقة، وهي قابلة لاختبار صحتها أو بطلانها بالتجربة، ولكن المسألة الرئيسة في طريقنا هي أننا لا نملك وسيلة لمعرفة الإجابة القطعية عن هذا السؤال إلا بعد الموت، ولذلك يمكننا أن نقيس».

وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية، فهي ليست بحقيقة لفظية. وقياسه كما يلي:

«وحيث إن قياسه لا يصدق هذه القضية، فهي ليست بحقيقة لفظية».

وقياسه كما يلي:ـ

«بناء على علم الأعصاب (Neurology) لا يمكن معرفة العالم الخارجي، والاتصال به، إلا عندما يعمل الذهن الإنساني في حالته العادية، وأما بعد الموت، فهذا الإدراك مستحيل، نظراً إلى بعثرة تركيب النظام الذهني[1]».

ولكن هناك قياسات أخرى، أقوى من هذا القياس؛ وهي تؤكد أن بعثرة الذرات المادية في الجسم الإنساني لا تقضي على الحياة؛ فإن «الحياة» شيء آخر، وهي مستقلة بذاتها، باقية بعد فناء الذرات المادية وتغيرها.

---

(1) Religion and Scientific Outlook, p. 206.

ومن المعلوم أن الجسم الإنساني يتألف من أجزاء (ذرات)، تسمى «الخلايا»، ومفردها: خلية (Cell). وهي ذرات صغيرة جداً ومعقدة، يزيد عددها في الجسم الإنساني العادي على 260.000.000.000.000.000 خلية. ويبدو أن هذه الخلايا مثل الطوب الصغير، ينبني منه هيكل أجسامنا. ولكن الفرق بين طوب أجسامنا والطوب الطيني شاسع جداً. فطوب الطين الذي يستخدم في العمارات يبقى كما هو ـ نفس الطوب الذي صنع في المصنع، واستخدم في البناء للمرة الأولى. بينما يتغير طوب هياكلنا في كل دقيقة، بل في كل ثانية، إن خلايا أجسامنا تنقص بسرعة، كالآلات التي تتآكل باحتكاكها واستهلاكها، ولكن هذا النقص يعوضه الغذاء، فهو يهيئ للجسم قوالب الطوب التي يحتاج إليها بعد نقص خلاياه واستهلاكها[1]. فالجسم الإنساني يغير نفسه بنفسه بصفة مستمرة، وهو كالنهر الجاري المملوء دائماً بالمياه، لا يمكن أن نَجدَ به نَفْسَ الماء الذي كان يجري فيه منذ برهة، لأنه لا يستقر؛ فالنهر يغير نفسه بنفسه دائماً، ومع ذلك فهو نفس النهر الذي وجد منذ زمن طويل، ولكن الماء لا يبقى، بل يتغير.

وجسمنا مثل النهر الجاري، يخضع لعملية مستمرة، حتى إنه يأتي وقت لا تبقى فيه أية خلية قديمة في الجسم، لأن الخلايا الجديدة أخذت مكانها.

هذه العملية تتكرر في الطفولة والشباب بسرعة، ثم تستمر بهدوء ملحوظ في الكهولة، ولو حسبنا معدل التجدد في هذه العملية فسوف نخرج بأنها تحدث مرة كل عشر سنين. إن عملية فناء الجسم المادي الظاهري تستمر، ولكن الإنسان في الداخل لا يتغير، بل يبقى كما كان: علمه، وعاداته وحافظته، وأمانيه، وأفكاره، تبقى كلها كما كانت. إنه يشعر في جميع مراحل حياته بأنه هو «الإنسان السابق»، الذي وجد منذ عشرات السنين، ولكنه لا يحس بأنَّ شيئاً من أعضائه قد تغير، ابتداء من أظافر رجليه حتى شعر رأسه.

---

(1) لم نشبه الخلية بالطوب إلا لشبه ظاهري، والحقيقة أن «الخلية» عملية معقدة للغاية، وهي في ذاتها جسم كامل، ويبحث عنها في علم الخلايا Cytology.

ولو كان الإنسان يفنى بفناء الجسم، لكان لازماً أن يتأثر على الأقل بفناء الخلايا وتغيرها الكامل، ولكننا نعرف جيداً أن هذا لا يحدث، وهذا الواقع يؤكد أن «الإنسان» أو «الحياة الإنسانية» شيء آخر غير الجسم، وهي باقية رغم تغير الجسم وفنائه، وهو كنهر يستمر فيه سفر الخلايا بصفة دائمة ! وهذا هو الأمر الذي دعا عالماً أن يصف الإنسان: بشيء مستقل بذاته، وباق غير متغير، رغم التغيرات المتسلسلة. فهو يعتقد:

«أن الشخصية هي عدم التغير في عالم التغيرات».

"Personality is changelessness in change".

ولو كان الموت فناء «للإنسان»، فمن الممكن أن نقول ـ بعد كل مرحلة من مراحل حدوث هذا التغير الكيماوي الذي يجري في الجسم ـ إن الإنسان قد مات، وإنه يعيش حياة أخرى جديدة بعد موته! ومعناه أن الرجل الذي أراه في الخمسين من عمره، وهو يمشي في الشارع على رجليه، قد مات في هذه الحياة القصيرة، فإذا لم يمت هذا الإنسان بعد فناء أجزاء جسمه المادية خمس مرات، فكيف أستطيع أن أعتقد بأنه مات في المرة السادسة على وجه اليقين؟ ولا سبيل له الآن إلى الحياة؟.

إن بعض الناس لن يسلموا بهذا الاستدلال، وسيقولون: إن العقل، أو الوجود الداخلي الذي نسميه «إنساناً»، ليس بشيء آخر، ولم يوجد إلا نتيجة علاقة الجسم بالعالم الخارجي، وإن الأفكار والأماني لا توجد خلال العمل المادي إلا كالحرارة التي توجد نتيجة احتكاك قطعتين من حديد!.

إن الفلسفة الحديثة تنكر (الروح) بشدة، ويعتقد السير جيمز: أن «الشعور» لا يوجد كوحدة Entity، وإنما هو وظيفة Function، وتفاعل وتنسيق Process.. وقد أصر الكثيرون من فلاسفتنا المحدثين على أن (الشعور) في ذاته ليس إلا التفاعل والرد العصبي لما يحدث من حركة ونشاط في العالم الخارجي. وبناءً على هذه النظرية لا مجال للتساؤل عن إمكان الحياة بعد الموت، نظراً لتحلل النظام الجسماني، ولأن المركز العصبي في الجسم لم يعد له وجود، وهو الذي كان يتفاعل وينسق مع العالم

الخارجي، وهم يعتقدون بناءً على هذا أن نظرية الحياة بعد الموت أصبحت غير ذات أساس عقلي أو واقعي.

سوف أقول: إنه لو كانت هذه هي حقيقة الإنسان فلنجرب أن نخلق إنساناً حياً ذا شعور، ونحن ـ اليوم ـ نعرف بكل وضوح جميع العناصر التي يتألف منها جسم الإنسان، وهذه العناصر توجد في الأرض وفي الفضاء الخارجي، بحيث يمكننا الحصول عليها، وقد علمنا دقائق بناء النظام الجسماني، وعرفنا هيكله وأنسجته، ولدينا فنانون مهرة يستطيعون أن يصنعوا أجساماً كجسم الإنسان، بكل مواصفاتها، فلنجرب ـ لو كان معارضو الروح يصرون على حقيقة مبدئهم ـ ولنصنع مئات من أمثال هذه الأجسام، ولنضعها في شتى الميادين، في بقعة الأرض الفسيحة، ثم لننتظر ذلك الوقت الذي تمشي فيه هذه الأجسام وتتكلم وتأكل «بناء على تأثيرات العالم الخارجي»!؟.

❖ ❖ ❖

فهذا عن إمكان بقاء الحياة بعد الموت.

ثانياً: ضرورة الآخرة:

لنفكر الآن في الأسباب التي أقام الدين عليها دعوته إلى الإيمان بهذه النظرية: إن الحياة، كما نتصور، ليست «غدواً ورواحاً»، كما يراها الفيلسوف الألماني (نيتشه)، والتي تمتلئ وتخلو كالساعة، ولا هدف لها أكثر من ذلك.. إن الحياة «الآخرة» ذات هدف عظيم، هو المجازاة على أعمال الدنيا، خيراً كانت أو شراً. وهذا الجزء من نظرية الآخرة يكاد يتضح جلياً حين نعلم أن أعمال كل إنسان تحفظ وتسجل بصفة دائمة، وبغير توقف. وللإنسان ثلاثة أبعاد، يعرف من خلالها، هي: نيته، وقوله، وعمله. وهذه الأبعاد الثلاثة تسجل بأكملها. فكل حرف يخرج عن لساننا، وكل عمل يصدر عن عضو من أعضائنا ـ يسجل في الأثير (الفضاء)؛ ويمكن عرضه في أي وقت من الأوقات بكل تفاصليه، لنعرف ـ إذا شئنا ـ كل ما قاله، أو فعله أي إنسان في هذه الحياة الدنيا، من خير أو شر.

إن الأفكار تخطر على بالنا، وسرعان ما ننساها، ويبدو لنا أنها انتهت، فلم يعد لها وجود، ولكنا، بعد فترة طويلة، نراها رؤىً خلال النوم، أو نذهب نتكلم عنها في حالات الهستريا أو الجنون، دون أن ندري شيئاً مما نقول. وهذه الوقائع تثبت قطعياً أن العقل أو الحافظة ليست تلك التي نشعر ونحس بها فحسب، وإنما هناك أطراف أخرى من هذه الحافظة لا نشعر بها، وهي ذات وجود مستقل، وذات كيان قائم بنفسه.

ولقد أثبتت التجارب العلمية أن جميع أفكارنا تحفظ في شكلها الكامل، ولسنا قادرين على محوها أبداً، وأثبتت هذه التجارب أيضاً أن الشخصية الإنسانية لا تنحصر فيما نسميه «الشعور»، بل هناك أجزاء أخرى من الشخصية الإنسانية تبقى وراء الشعور، يسميها فرويد: «ما تحت الشعور»، أو «اللا شعور». وهذه الأجزاء تشكل جانباً كبيراً من شخصيتنا، بل هي الجانب الأكبر منها؛ ومثلها كمثل جبل من الجليد في أعالي البحار، أجزاؤه الثمانية مستكنة تحت الماء، على حين لا يطفو منه إلا الجزء التاسع.

وتلك هي ما نسميه: (تحت الشعور)، الذي يسجل ويحفظ كل ما نفكر فيه، أو ننتويه.

يقول (فرويد) في محاضرته الحادية والثلاثين:

«إن قوانين المنطق، بل أصول الأضداد أيضاً، لا تحول دون عمل (اللاشعور) ID، وإن الأماني المتناقضة موجودة فيه جنباً إلى جنب، دون أن تقضي واحدة منها على الأخرى، ولا شيءَ في (اللاشعور) يشبه أن يكون «رفضاً» لشيء من هذه المتناقضات. إننا نتحير لما نشاهده من أن اللاشعور يبطل رأي فلاسفتنا القائلين بأن جميع أفعالنا العقلية الشعورية تتم في زمن محدد، ولكن لا شيء في اللاشعور يطابق الفكر الزمني، ولا يوجد فيه أي رمز لمضي الوقت وسريانه، وهي حقيقة محيرة. ولم يحاول الفلاسفة أن يتأملوا حقيقة، هي أن مضي الزمن لا يحدث أي تغيير في العمل الذهني؛ إن الدوافع الحبيسة (Conative Impulses) التي لم تخرج قط عن

اللاشعور، وحتى التأملات الخيالية التي دُفنت في اللاشعور تكون أزلية في الحقيقة والواقع، وتبقى محفوظة لعشرات السنين، وكأنها لم تحدث إلا بالأمس[1]».

وقد سلم علماء النفس بهذه النظرية بصفة عامة اليوم، ومعناها أن كل ما يخطر على بال الإنسان من الخير والشر، ينقش في صفحة اللاشعور، فلا يزول إلى الأبد، ولا يؤثر فيه تغير الزمان، وتقلب الحدثان، ويحدث هذا على رغم الإرادة الإنسانية ـ طوعاً أو كرهاً.

ولم يستطع (فرويد) أن يدرك ما يكمن خلف هذه العملية من أسباب وعلل، وأية خدمة تؤديها في مصنع الكون؟ ولهذا نراه يدعو الفلاسفة إلى التفكير والتأمل. لكنّا لو قارنّا هذا الواقع مقروناً إلى نظرية الآخرة لاستطعنا أن نصل إلى حقيقتها بسرعة، إن هذا الواقع يؤكد، بكل صراحة، إمكان وجود سجل كامل لأعمال الإنسان في حياته، عندما يبدأ حياته، الأخرى، فإن وجوده نفسه سوف يشهد على الأعمال والنيات التي عاشها: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾[2].

❖❖❖

1 - مسألة القول:

ولنتناول هنا مسألة «القول»: إن نظرية الآخرة تقول إنَّ الإنسان مسؤول عن (أقواله)، فجميع ما نلفظه من كلام، حسناً كان أو قبيحاً، حمداً أو سخطاً؛ وسواء استعملنا اللسان في إبلاغ رسالة الحق، أو استعملناه في إبلاغ رسالة الشيطان، كل ذلك يحفظ في سجل كامل: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[3]. وهذا السجل سوف يعرض أمام محكمة الآخرة، ليتم حساب الإنسان.

---

(1) New Introductory Lectures on Psyho-Analysis, London 1949, p. 99.

(2) ق: 16.

(3) ق: 18.

وإمكان وقوع هذا لا ينافي العلم الحديث، فنحن نعرف قطعاً أن أحداً عندما يحرّك لسانه ليتكلم، يحرّك بالتالي موجات في الهواء، كالتي توجد في الماء الساكن عندما نرمي فيه بقطعة من الحجر. . إنك لو وضعت جرساً كهربائياً في زجاج محكم الإغلاق من كل جانب، ثم تضغط عليه، فلن تسمع صوته، رغم أن الجرس على مرأىً منك. . لأنه لا يرسل الموجات إلى الخارج، فهو مكتوم داخل الزجاج، وهذه الموجات في الظروف العادية تصطدم بطبلة الأذن، التي تقوم آلياً بإرسال هذه الموجات إلى العقل، فما نفهمه من المعنى، يسمى «سماعاً» !

ولقد ثبت قطعياً أن هذه الموجات تبقى كما هي في «الأثير»، إلى الأبد، بعد حدوثها للمرة الأولى، ومن الممكن سماعها مرة أخرى. ولكن علمنا الحديث عاجز حتى الآن عن إعادة هذه الأصوات، أو بعبارة أصح: عن أن يضبط هذه الموجات مرة أخرى، مع أنها لا تزال تتحرك في الفضاء من زمن بعيد. ولم يبد العلماء اهتماماً خاصاً بهذا المجال حتى الآن، بعد أن سلموا ـ نظرياً ـ بإمكان إيجاد آلة لالتقاط أصوات الزمن الغابر، كما يلتقط المذياع الأصوات التي تذيعها محطات الإرسال. على أن المسألة الكبرى التي نواجهها في هذا الصدد، ليست هي التقاط الأصوات القديمة، وإنما التمييز بين الأصوات الكثيرة ـ الهائلة الكثرة ـ حتى نتمكن من سماع كل صوت على حدة. . وهذه هي مسألة الإذاعة، التي وصلنا فيها إلى حل ؛ فإنّ آلاف المحطات الإذاعية في العالم تذيع برامج كثيرة ليل نهار، وتمر موجات هذه البرامج في الفضاء، بسرعة 186.000 ميل في الثانية وكان من المعقول جداً عندما نفتح المذياع أن نسمع خليطاً هائلاً من الأصوات لا نفهم منه شيئاً، ولكن هذا لا يحدث، لأن جميع محطات الإذاعة ترسل برامجها على موجات يختلف طولها، فمنها ما يرسل برامجه على موجات طويلة ؛ ومنها ما يرسل على موجات قصيرة، ومتوسطة. وهكذا تمر هذه البرامج في الفضاء بموجات مختلفة طولاً، فتستطيع أن تسمع أية موجة من المذياع، بمجرد أن تدير عقربه إلى المكان المطلوب.

إن علماءنا لم ينجحوا في اختراع آلة تفرق بين أصوات الزمن القديم، ولولا ذلك لكنا قد سمعنا تاريخ كل عصر وزمان بأصواته. وبناء على هذا يثبت إمكان

سماع الأصوات القديمة في المستقبل، فيما لو نجحنا في اختراع الآلة المطلوبة؛ ومن ثم لا تبقى نظرية الآخرة بعيدة عن القياس، وهي القائلة بأن كل ما ينطق به الإنسان يُسجل، وهو محاسب عليه يوم الحساب. وربما كان قياساً مع الفارق الكبير أن نذكر هنا ما حدث عندما كان الدكتور مصدق ـ رئيس وزراء إيران الأسبق ـ مسجوناً أثناء محاكمته عام 1953، فقد ركبت في غرفته آلة للتسجيل تتحرك آلياً، وسجلت هذه الآلة كل ما نطق به الدكتور مصدق في غرفته، وقد عرضوا أشرطة التسجيل أمام المحكمة، شهادة عليه.. وهو نموذج لما يمكن أن يحدث في الآخرة.

إن مناقشتنا لجوانب المسألة لا تنفي وجود ملائكة لله ـ أو بلفظ آخر ـ وجود «مسجلين» غير مرئيين، ينقشون على صفحة الفضاء كل ما نطق به من كلام، وهو ما يصدق قول الله سبحانه: «ما يَلْفِظُ مِنْ قولٍ إلا لَدَيْه رقيبٌ عَتيد».

❖ ❖ ❖

2 – مسألة العمل:

ولننظر الآن في مسألة (العمل): ومعلوماتنا في هذا الصدّد تصدّق بصورة مدهشة إمكان حدوث الآخرة.

فالعلم الحديث يؤكد إيمانه بأن جميع أعمالنا ـ سواء أباشرناها في الضوء، أم في الظلام، فُرادى، أم مع الناس، كل هذه الأعمال موجودة في الفضاء في حالة الصور، ومن الممكن في أية لحظة تجميع هذه الصور، حتى نعرف كل ما جاء به إنسان ما، من أعمال الخير والشر طيلة حياته؛ فقد أثبتت البحوث العلمية أن كل شيء ـ حدث في الظلام أو في النور، جامداً كان أو متحركاً ـ تصدر عنه «حرارة» بصفة دائمة، في كل مكان، وفي كل حال، وهذه الحرارة تعكس الأشكال وأبعادها تماماً، كالأصوات التي تكون عكساً كاملاً للموجات التي يحركها اللسان. وقد تم اختراع آلات دقيقة لتصوير الموجات الحرارية التي تخرج عن أي كائن، وبالتالي تعطي هذه الآلة صورة فوتوغرافية كاملة للكائن حينما خرجت منه الموجات الحرارية (Heat Waves). ومثاله أنني أكتب الآن في مكتبتي، وسوف أغادرها بعد ساعة، ولكن الموجات

الحرارية التي خرجت من جسدي أثناء وجودي ههنا، ستبقى دائماً، ويمكن الحصول على تسجيل كامل لجلستي في المكتبة في أي وقت بوساطة تلك الآلة، غير أن الآلات التي تم اختراعها إلى الآن، لا تستطيع تصوير الموجات الحرارية إلا خلال ساعات قليلة من وقوع الحادث. أما الموجات القديمة، فلا تستطيع هذه الآلة تصويرها، لضعفها.

وتستعمل في هذه الآلة (أشعة إنفرارد) التي تصور في الظلام والضوء، على حد سواء. ولقد بدأ العلماء في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية استغلال هذه الآلة في تحقيقاتهم، وذات ليلة حلقت طائرة مجهولة في سماء نيويورك، فصوروا الموجات الحرارية لفضاء نيويورك بهذه الآلة، وأدى ذلك إلى معرفة طراز الطائرة ونوعها[1]. ولقد أطلق على هذه الآلة اسم: «آلة تصوير الحرارة» Evaporagraph. ونشرت جريدة هندوستان تايمس الهندية تعليقاً بمناسبة هذا الاختراع، تقول: «إننا بفضل هذه الآلة سوف نستطيع أن نشاهد تاريخنا على شاشة السينما في المستقبل، ومن الممكن أن تنتهي هذه العملية إلى كشوف عجيبة، تغير أفكارنا عن التاريخ من جذورها..»

وإنني أعتبر هذا الاختراع عجيباً كل العجب، فمعناه أن حياة كل منا تصور على مستوى علمي، كما تسجل آلات التصوير الأوتوماتيكية السريعة جميع تحركات الممثلين السينمائيين. إنك لو صفعت فقيراً، أو حملت عبئاً عن أحد الغرباء، أو شغل بالك أمر من الخير أو الشر.. فإن جميع تحركاتك تسجل على شاشة الكون، حيث لا يسعك منعها أو الهرب منها، سواء أكنت في الظلام أم في النور. فحياتك كالقصة التي تصور في الأستديو، ثم تشاهدها على شاشة السينما بعد حقب طويلة من الزمن، وعلى بعد كبير من مكان التسجيل، ولكنك تشعر كأنك موجود في مكان الأحداث، وهكذا شأن كل ما يقترفه الإنسان، وشأن الأحداث التي يعيشها، فإن فيلماً كاملاً

---

(1) Reader's Digest, November, 1960.

لتلك الأحداث سوف يوضع بين يدي كل فرد، يوم القيامة، حتى يصرخ الناس قائلين: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَا﴾[1]؟.

❖ ❖ ❖

والتفاصيل العلمية التي أوردنا بعضها في الصفحات الماضية يتضح منها جلياً أن أجهزة الكون تقوم بتسجيل كامل لكل أعمال الإنسان؛ فكل ما يدور في أذهاننا يحفظ إلى الأبد، وكل ما ننطق به من الكلمات يسجل بدقة فائقة، فنحن نعيش أمام كاميرات تشغيل دائماً، لا تفرق بين الليل والنهار.. وجميع أعمالنا، القلبية منها واللسانية والعضوية، كلها تسجل بدقة تامة.. ولا يسعنا ـ ونحن نشرح هذه الظاهرة العلمية الخطيرة ـ إلا أن نسلم بأن قضية كل منا سوف تقدم أمام محكمة إلهية.. وبأن هذه المحكمة هي التي قامت بإعداد هذا النظام العظيم، لتحضير الشهادات التي لا يمكن تزويرها.

ولا يستطيع أي عالم أن يدلي بتفسير أدق عن هذه الظاهرة سوى ما قلناه.. فلو لم تستطع هذه الوقائع الصريحة الساخنة أن تجعل البشر يحسون بمسؤوليتهم إزاء المحكمة الجبارة التي ستقام يوم الحساب، فلا أدري ما الواقع الذي قد يجعل هؤلاء يفتحون أعينهم؟!.

❖ ❖ ❖

ثالثاً: الحاجة إلى الآخرة:

لقد بحثنا في الصفحات الماضية فيما إذا كان حدوث شيء من مثل الآخرة، التي يدعيها الدين، «ممكناً»؟ ولقد ثبت مما علمنا أن الآخرة ممكنة الحدوث.. والمسألة التي نقف أمامها الآن هي: البحث فيما إذا ما كان هذا العالم في حاجة ـ فعلاً ـ إلا شيء من قبيل الآخرة؟ وهل يقتضي الكون ـ في هيكله الحالي ـ وقوعها؟؟

---

(1) الكهف: 49.

1 - الجانب النفسي:

لنتناول أولاً (الجانب النفسي) من المسألة.

يقول البروفيسور (كنجهام) في كتابه: Plato's Apalogy: «إن عقيدة الحياة بعد الموت «لا أدرية مفرحة Cheerful Agnosticism»، ومن الممكن اعتبار هذا القول خلاصة أفكار فلاسفتنا الملحدين المعاصرين؛ فهم يرون أن عقيدة الآخرة اخترعتها عقلية الإنسان الباحثة عن عالم حر، مستقل عن حدود هذا العالم، وعن مشكلاته، مليء بالأفراح. وإنما يدفعه إلى الإيمان بهذه العقيدة أملُه في الحصول على حياته المفضلة، التي لا جهد فيها ولا كدح.. وأن هذه العقيدة تنتهي بالإنسان إلى عالم مثالي وخيالي، حيث يحلم بأنه سوف يظفر به بعد الموت. ولكن الحقيقة - كما يراها الفلاسفة - أن لا وجود لشيء كهذا العالم الثاني، في الأمر الواقع!.

وفي رأيي: أن هذا الطلب الإنساني - في حد ذاته - «دليل نفسي» قوي على وجود عالم آخر، كالظمأ، فهو يدل على الماء، وعلى علاقة خاصة باطنة بين الماء وبين الإنسان. وهكذا فإن تطلع الإنسان - نفسياً - إلى عالم آخر دليل في ذاته على أن شيئاً مثل ذلك موجود في الحقيقة، أو أنه - على الأقل - خليق أن يوجد. وهذا المطلب النفسي يؤكد علاقة مصيرنا بهذه الحقيقة، ويدلنا التاريخ على وجود هذه الغريزة الإنسانية منذ أقدم العصور على مستوى إنساني، وهو أمر لا أستطيع فهمه: كيف يمكن أن يؤثر أمر باطل على البشر في هذا الشكل الأبدي، وعلى مستوى إنساني؟ وهذا الواقع نفسه يدلنا على قرينة قوية بإمكان وجود العالم الآخر. وإنكارُ هذه الحاجة النفسية، بدون أدلة، يعتبر جهلاً وتعصباً.

إن الذين ينكرون حاجة نفسية عظيمة مثل هذه، زاعمين أنها باطلة، هم من أعجز الناس حقاً عن تفهم أي «واقع» على سطح الأرض، بعد هذا.. ولو كانوا يزعمون الفهم، في الواقع، فلا أدري بأي دليل؟.. وعن أي برهان؟.

ولو كانت هذه الأفكار نتاج المجتمع، كما يزعمون، فكيف لا تزال تطابق التفكير الإنساني، بهذه الصورة المدهشة، من أقدم العصور؟ هل تجدون مثالاً لأية أفكار إنسانية أخرى ظلت باقية إلى العصر، الحاضر، وبهذا التسلسل الرائع منذ

ألوف السنين؟ هل يستطيع أذكى أذكيائكم أن يخترع فكراً واهياً، ثم يدخله إلى النفس الإنسانية، وكأنه موجود بها منذ الأزل؟.

إن لكل إنسان أماني كثيرة لا تكلل بالنجاح في حياته، إنه يتمنى حياة أبدية، ولكن الحياة التي أعطيت له تخضع لقانون الموت. والعجيب أن الإنسان عندما يكون على أبواب حياة ناجحة عظيمة، بعدما كسب من العلم والمعرفة، والخبرة والتجارب الثمينة، حينئذ تداهمه دعوة الموت..

ولقد أكدت إحصائية عن تجار لندن الناجحين أن أمرهم يستقر فيما بين 45 ـ 65 سنة من أعمارهم، ثم يبدأون يربحون ما بين خمسة آلاف إلى عشرة آلاف جنيه في السنة، وفي ذلك الوقت الثمين ـ فجأة ـ تتوقف حركات قلوبهم ذات مساء، أو ذات صباح، فيرحلون إلى مجهول، تاركين تجارتهم الممتدة إلى ما وراء البحار..

يقول الأستاذ وينوود ريد (Winwood Reade):

«إنه لأمر هام يدعونا إلى التفكير إذا ما كانت لنا علاقة شخصية مع الإله؟ هل هناك عالَم غير عالمنا هذا؟ وهل سوف نلقى جزاء أعمالنا في ذلك العالم؟ إن هذا السؤال ليس بعقيدة فلسفية عظيمة فحسب، وإنما هو في الوقت نفسه أعظم أسئلتنا العملية أيضاً. إنه سؤال تتعلق به مصالحنا الكثيرة؛ فحياتنا الراهنة قصيرة جداً، أفراحها عادية موقوتة، إذ إننا عندما نظفر بما نحلم يفاجئنا الموت، ولو استطعنا الاهتداء إلى طريق خاصة تجعل أفراحنا دائمة وأبدية، فلن يرفض العمل به أحد غير البله والمجانين منا[1]».

ولكن الكاتب نفسه يستطرد فينكر ذلك المطلب النفسي الكبير، من أجل أمور لا وزن لها ولا قيمة؛ فهو يقول: «إن هذه العقيدة كانت معقولة جداً حين كنا لا نبحث جوانبها بعمق وجد.. ولكن بعد هذا البحث اتضح لنا أنها أمر سخيف، ويمكن إثبات سخافته بسهولة، فالفلاح المحروم العقل الجاهل لا يتحمل مسؤولية خطاياه، وسيدخل الجنة، ولكن العباقرة مثل (جوته)، و (روسو)، سوف يحترقون

---

(1) Martyrdom of Man,414.

في نار الجحيم ؛ فلأن يُخْلَق الإنسانُ محرومَ العقل خيرٌ له من أن يكون من أمثال جوته وروسو ! ! إن هذا الكلام تافه وسخيف[1]» .

وما أشبه هذا الموقف بالذي اتخذه (اللورد كلوين) تجاه التحقيق العلمي الذي قام به (ماكسويل) ؛ فقد زعم اللورد أنه لا يستطيع أن يفهم نظرية ما إلا بعد وضع نموذجها الميكانيكي ، وبناءً على هذا الفرض أنكر نظرية (ماكسويل) عن البرق والمغناطيس لأنها لم تحلَّ في أحد نماذج اللورد المادية ! إن مثل هذه المواقف والادعاءات الخرافية أصبحت غريبةً في عالم الطبيعة الحديثة . ويتساءل العالم الكبير (سوليفان) :

«كيف يروق لأحد أن يدعي أن الطبيعة لا بد أن تكون كما يضعها مهندس القرن التاسع عشر في معمله[2]؟» .

وسوف أوجه هذا الكلام إلى الأستاذ (وينوود) :

«كيف يجوز لفيلسوف القرن العشرين أن يرى : أن يكون الكون الخارجيُّ ، في حقيقة الأمر مطابقاً لما يزعمه هو؟» .

إن كاتبنا لم يستطيع أن يفهم أمراً في غاية البساطة : هو أن الحقيقة لا تحتاج إلى الواقع الخارجي ، وإنما الواقع الخارجي هو الذي يكون في حاجة إلى «الحقيقة» . . فالحقيقة أن لهذا الكون إلهاً ، وسوف نَمثُل أمامه يوم الحساب . فلا بد لكل منا ـ سواء أكان روسو أم كان مواطناً عادياً ـ أن يكون وفياً ومطيعاً لإلهه ؛ فنجاتنا لن يحققها جحودنا ، بل هي تكمن في إيماننا وطاعتنا . . والغريب أن كاتبنا لم يرق له أن يطالب (جوته) و (روسو) أن يسلكا مسلك الحق ، وإنما طالب الحق بالتغير ولما لم يطع الحقُّ راح ينكره ! ! وهذا أشبه بمن ينكر قانون حفظ الأسرار العسكرية ، الذي يكرم أحياناً جندياً بسيطاً ، ويعدم عالماً ممتازاً ، مثل «روزنبيرج وعقيلته الحسناء» بالكرسي الكهربائي ! ! .

---

(1) Ibid., 415.

(2) J. W.N. Sullivan, The Limitations of Science, p. 9.

إنه لا يوجد على سطح الأرض من يفكر في «الغد» غير الإنسان.

فهو يتميز عن سائر الحيوانات بدوام تفكيره في المستقبل، وجهاده المتواصل، وسعيه الدائب في سبيل تحسين أحواله. ولا شك أننا قد نجد بعض الحيوانات تعمل لمستقبلها؛ كالنمل الذي يدخر غذاءه للشتاء القادم؛ والطيور التي تصنع أعشاشاً يسكنها أولادها بعد فقسهم، ولكن هذا العمل لدى الحيوانات يعتبر «غرزياً»، فهو صادر عن غير شعور بالمسؤولية؛ إنها لا تقوم بهذه الأعمال لقلقها من مشكلات الغد، وإنما تأتي بها طبيعياً، ومن ثم تنتفع بها في المستقبل، فالتفكير في المستقبل يتطلب فكراً مدركاً واعياً، وهو من ميزات الإنسان فحسب، ولا يتمتع به شيء من الحيوانات غيره.

هذا الفرق الكبير بين الإنسان والحيوان يؤكد أنه لا بد أن تكون للإنسان مواقع أكثر بالنسبة إلى أي نوع آخر للانتفاع بها، فحياة الحيوانات هي ما تسمى «حياة اليوم»، ففكرة الغد لا توجد عندها، ولكن مطالعة حياة الإنسان تقتضي «غداً»، ولو أنكرنا هذه الحاجة لخالفنا الطبيعة.

ويعتقد بعض العلماء والفلاسفة أن خيبة آمال الإنسان في حياته الراهنة هي التي تجعله يفكر في حياة أفضل، وهم يرون أن هذا الفكر سوف يتلاشى لو أتيح للإنسان مجتمع رفاهي كامل. فقد اعتنق عدد كبير من أسرى الروم المسيحية لأنها وعدتهم بأفراح السماء.. ولذا تتوقع هذه الطائفة من العلماء والفلاسفة أن سعادة الإنسان ورفاهية المجتمع سوف تزداد أكثر فأكثر، إلى أن تقضي نهائياً على نظرية «العالم الآخر».

ولكن تاريخ الأربعمائة سنة الأخيرة ـ التي ازدهرت فيها العلوم والتكنولوجيا ـ يكذب هذا التوقع؛ فإن أول ما هيأ التقدم التكنولوجي للإنسان أنه أتاح له وسائل عديدة، احتكرتها أيد محدودة، قامت بدورها باستغلالها، وقضت على صغار العمال والحرفيين، وحولت تيار الثروات إلى كنوزها، وخزائنها، وجعلت من الشعب عمالاً فقراء معوزين، ويمكن مطالعة هذه المناظر القبيحة، التي جاء بها التقدم التكنولوجي، في كتاب كارل ماركس «رأس المال». الذي يعتبر ضجيجاً للطبقة

العمالية، التي عاشت القرنين الثامن والتاسع بعد الألف، ثم بدأت ردود فعل هذا الضجيج، وتبعه كفاح طويل، قامت به المنظمات العمالية، حتى تحسنت الأحوال إلى حد ما. ولكنني أرى أن التغير الذي طرأ على أحوال العمال ليس إلاّ ظاهرياً؛ فالعامل اليوم يتقاضى أكثر مما كان يتقاضاه بالأمس، أما السعادة الحقة، فإنه أكثر انتقاداً لها من سلفه.. ذلك أن النظام التكنولوجي لم يعط الإنسان أكثر من مظاهر مادية، فهو لا يملك القيم الروحية، حتى يمنح لأتباعه السعادة والطمأنينة القلبية، وما أصدق ما قاله الشاعر (Blake) عن إنسان الحضارة الحديثة:

A mark in every face I meet.

Marks of weakness, marks of woe.

كلُّ وجه تُرَى عليه سماتٌ فيه ضعفٌ، وفيه ذلٌ وحقد

لقد اعترف «برتراند راسل» قائلاً «إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح، على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة، ولكنهم محرومون من نعمتها في عالمنا الحديث[1].» واليوم، كما يقول راسل، أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة: السعادة[2]!!.

إنك عندما تزور نيويورك، تشاهد أبنيتها الضخمة مثل عمارة «إمباير ستيت»، التي تتكون من 102 طابقاً، وهي عالية جداً، حتى إن درجة الحرارة في أدوارها العليا تكون منخفضة جداً بالنسبة إلى أدوارها السفلى، وعندما تخرج منها وتراها من الشارع فلن تصدق أنك كنت فوق هذا العملاق، الذي يرتفع 1250 قدماً فوق سطح الأرض، ولا يستغرق المصعد الكهربائي للصعود من أسفلها إلى أعلاها أكثر من ثلاث دقائق!! وبعد مشاهدة هذه العمارات والمظاهر تذهب إلى النوادي وتشاهد الرجال والنساء يرقصون ملتصقين.. وتفكر «ما أسعد هؤلاء الناس!»، ثم تأوي إلى مقعد تشاهد الرقص المثير، ولن تقضي وقتاً طويلاً حتى تأتيك حسناء من هؤلاء القوم، وتجلس على المقعد المواجه لمقعدك، إنها تبدو كئيبة، فتسألك دون مقدمات:

---

(1) Conquest of Happiness, p.11.

(2) Ibid., p.93.

ـ أيها السائح، هل أنا قبيحة المنظر؟

ـ إنني لا أرى ذلك..

ـ ولكنني أفهم أنني فقدت «روعة الجمال»، أليس كذلك؟

ـ لا.. في رأيي أنك تملكين كثيراً من الفتنة وروعة الجمال.

ـ شكراً أيها السائح الكريم! ولكن الشبان لا يبالون بي، ولا يواعدونني. لقد أصبحت الحياة بالنسبة إليّ مملة موحشة...

إن ما رأيته في نيويورك لم يكن إلا منظراً مقتضباً من مسرحية الإنسان في العصر الحديث.

لقد أقامت العلوم والتكنولوجيا أبنية شامخة، ولكنها نزعت السعادة من قلوب ساكنيها، إنها أقامت مصانع تتحرك بآلات هائلة، ولكنها حرمت عمالها الراحة التي يطمحون إليها، وهذه هي نتيجة التاريخ العلمي والتكنولوجي. فكيف بنا إذن نطمح ونتوقع عالماً يسوده السلام والسعادة، من «صنع التكنولوجيا»؟!.

❖ ❖ ❖

2 ـ الضرورة الأخلاقية:

وعندما ندرس المسألة من الوجهة الأخلاقية نرى أنه لا بد من «الآخرة»، فإن التاريخ الإنساني لن يكون له أي معنى دونها.

إن فطرة الإنسان تميز بين الخير والشر، والصالح والطالح، والظلم والعدل، وهذه الفطرة هي التي تميز الإنسان عما سواه، ولكن ها هو ذا الإنسان الذي كرمه ربه، يهدر فطرة الله أكثر ممن لا يتمتعون بها؛ إنه يظلم بني جنسه؛ يقتلهم ويشردهم، ويوجه إليهم كل شر مستطاع..

إن الحيوانات لا تظلم فصائلها، فالأسد ليس في الأسود أسداً، والنمر ليس في العرين نمراً.. ولكن الإنسان أصبح يفترس إخوانه، حتى الأقربين منهم، مما لا يوجد له مثيل في قانون الغابة..

ولا مرية أننا وجدنا أضواء الحق والعدالة في التاريخ الإنساني، وأننا نقدرها حق قدرها، ولكن الجزء الأكبر من التاريخ يفيض بقصص الظلم والفساد والعدوان. إن المؤرخ ليصاب بيأس بالغ عندما يرى أن أحداث التاريخ تتعارض تماماً مع الضمير الإنساني.

ولنقتبس هنا بعض الأقوال:

فولتير: «إن التاريخ الإنساني ليس إلا صورة للجرائم والمصائب[1]».

هربرت سبنسر: «إن التاريخ تهريج، وكلام فارغ لا جدوى منه».

نابليون: «إن التاريخ بأكمله عنوان لقصة لا تعني شيئاً».

إدوارد جين: «إن تاريخ الإنسان لا يعدو أن يكون سجلاً للجرائم، والحماقة، وخيبة الأمل».

هيكل: «إن الدرس الوحيد الذي تعلمته الحكومة والشعب من مطالعة التاريخ هو أنهم لم يتعلموا من التاريخ شيئاً».

هل قامت مسرحية العالم كلها لتنتهي إلى كارثة أليمة؟ إن فطرتنا تقول: لا.. فدواعي العدالة والإنصاف في الضمير الإنساني تقتضي عدم حدوث هذا الإمكان، لا بد من يوم يميز بين الحق والباطل، ولا بد للظالم والمظلوم أن يجنيا ثمارهما، وهذا مطلب لا يمكن إقصاؤه من مقومات التاريخ، كما لا يمكن إبعاده عن فطرة الإنسان.

إن هذا الفراغ الشاسع الذي يفصل ما بين الواقع والفطرة يقتضي ما يشغله؛ فإن المسافة الهائلة بين (ما يحدث) و (ما ينبغي أن يحدث) تدل على أن مسرحاً آخر قد أعد للحياة، وأنه لا بد من ظهوره. فهذا الفراغ العظيم يدعو إلى تكميل الحياة. وإني لأتحير عندما يؤمن الناس بفلسفة الروائي الإنجليزي «هاردى» القائلة: إنَّ العالم مكان للظلم والوحشية، ولكنني أصاب بحيرة أكبر عندما أرى أن هذه الحالَة البالغة السوء لا تقودهم إلى الإيمان بأن: ما ليس بموجود اليوم، ويقتضيه العقل، لا بد من حدوثه غداً.

---

(1) Story of Philosophy, Will Durant, p.22.

«إذا لم تكن هنالك قيامة فمن ذا الذي سوف يكسر رؤوس هؤلاء الطواغيت الطغاة؟» ـ كلمة كثيراً ما تخرج من شفتيّ مصحوبة بأنين مرير، عندما أطالع الجرائد ؛ فجرائدنا صورة مصغرة لما يحدث كل يوم على الأرض، والصورة التي تحملها الجرائد إلينا رهيبةٌ. . إنها تتكلم عن الاغتيالات، والخطف، والنهب، والاتهامات الكاذبة، والتجارة السياسية، والدعايات الباطلة التي تتلعّب بالألفاظ. إن هذه الجرائد تخبرنا كيف نكّل الحاكم الفلاني بمعارضيه الضعفاء باسم مصالح الأمة ودواعي الأمن القومي؟! وكيف سيطر ذلك الشعب على أرض لم يملكها طيلة التاريخ، بقوة السلاح!! وليست هذه الجرائد إلا حكايات لمأساة الضعيف والقوي، والسلطان والرعاع !!.

إن الأحداث التي وقعت في بلادي أخيراً، وبخاصة تلك الاغتيالات الجماعية، وعمليات النهب والحرق المخططة التي جرت في مناطق جبل بور، وجمشيد بور، وراؤركيلا، وكلكتا ـ يبدو بعدها أن المرء لا ينبغي أن يستبعد وقوع أية جريمة على هذه الأرض، سواء أمكنه تصورها أم لا!!.

فإن قوماً يرفعون شعارات (العلمانية) و (الجمهورية) و (اللاعنف) يستطيعون ـ في الوقت نفسه ـ أن يرتكبوا أبشع أنواع الطائفية، وأشنع ألوان الدكتاتورية، وأسوأ صور العنف، كما لم يشهده التاريخ. وكل هذه الجرائم البشعة ـ التي تأسى لحدوثها السباع المفترسة، والذئاب الضارية، والخنازير الوحشية ـ قد جرت في عهد زعيم أطلق عليه لقب: «معلم الإنسانية ورسول السلام[1]» !! وليت المأساة توقفت عند هذا الحد، فلقد ارتكبت، في هذا العصر الذي ازدهر فيه النشر والإذاعة، جرائم شنيعة، وأحداث مروّعة، من نهب، وقتل، وإحراق أقوام بأسرهم ؛ ودامت المأساة أشهراً طويلة، بل سنين عديدة، في بلاد شاسعة جداً من الهند، والصحافة العالمية لا تنشر عنها شيئاً ما، وقد امّحتْ تماماً هذه الجرائم من صفحات التاريخ، كأن لم تكن مأساة الأمس القريب!!.

---

(1) إشارة إلى جواهر لال نهرو، وقد جرت الأحداث البشعة التي أشار إليها المؤلف خلال الأعوام 1961، 62، 64، ولم ينشر عنها شيء بفعل التآمر العالمي. (المراجع).

هـل خلـق هـذا العـالم ليكـون مسـرحاً للمآسـي، والشـيطنة، والهمجيـة والقرصنة، ثم لا يلقى الظالم والمظلوم جزاءَهُما؟! إن عالماً ـ مـن هـذا القبيـل ـ إعـلان في حد ذاته عن أنه ناقص، وهذا النقص في ذاته يقتضي ما يكمله.

3 - مشكلة السلوك:

ولندرس هذا من ناحية أخرى. لقد شـغلت مسـألة هامـة الذهـن الإنسـاني مـن أقدم العصور، وهي كيفية إجبـار النـاس علـى سـلوك طريـق الحـق؛ فـإذا افترضنـا أن بعض أفراد المجتمع قد منحوا سلطة سياسية من أجل تحقيق هذا الـهدف، فمـن الممكـن أن يمتنع الرعايا خوفاً من العذاب. ولكن ما الذي يدفع أولئك الذين يتمتعون بالسلطة السياسية إلى تحقيق العدل والإنصاف؟.

ولو أننا استنجدنا القانون، واستصرخنا المحكمة، فكيف إذن يمكن أن نبلغ بهما تلك الأمـاكن والجوانـب التي لا تخضـع للشـرطة والقـانون؟ ولـو أننـا خضنـا معـارك الدعايـة، وناشـدنا أهـل الشـر أن يكفـوا عـن الجرائـم، فمـن ذا الـذي ينصـت إلينـا؟ ويتخلى عن فائدة يجنيها دون كلفة؟ إن رهبة عقاب الدنيا لن تنجح في قمع انحرافات الإنسان؛ فنحن جميعاً نعرف أن الكذب، والرشوة، والمحسوبية، واسـتغلال النفـوذ، وما إلى ذلك من الوسائل المعروفة، سوف تحول دون أي إمكان للعقاب.

إنه لن يفلح شيء في قمع الجرائم غير الدافع المنبعث مـن داخـل قلـب الإنسـان ـ الضمير، الضمير الذي لو دخل إرادة الإنسـان فلـن يسـقطه عـامل خـارجي أيـاً كـان، وهذه الميزة غير متَاحة إلا في عقيدة الآخرة. . فإن دافعاً قويـاً يكمـن في هـذه العقيـدة، ويجعل من اتقاء الجرائم مصلحة ذاتية لكل إنسان.

إنها مصلحة يهتم بها الجميع، فالكل رئيساً كان أم مرؤوساً، في الظلام كـان أو في الضوء ـ ينطلق يفكـر في أنـه لا بـد مـن يـوم للقـاء الله، والكـل يشـعر بـأن الله يـراه، وسوف يحاسـبه حسـاباً عسـيراً. وهـذه الأهميـة الكـبرى في عقيـدة الآخـرة هـي التـي جعلت القاضي ماتيوهالوس (Mathew Halos)، وهو من كبـار قضـاة القـرن السـابع عشر، يقول:

«إن القول بأن الدين خدعة، هو إبطال لجميع المسؤوليات التي تقع على عاتقنا لاستقرار النظام الاجتماعي[1]».

ألا ما أهم هذا الجانب من نظرية الآخرة!!.

وإنا لنستطيع أن ندرك أبعاد هذه النظرية لو تأملنا أن كثيراً من علمائنا الملحدين، الذين لا يعتقدون أن الآخرة أمر واقع، قد اضطروا - بناء على تجارب التاريخ - إلى القول بأنه لا يوجد شيء غير «الآخرة» لمراقبة الإنسان، وإخضاعه لسلوك طريق الحقِّ والعدل في جميع الظروف: لقد أنكر الفيلسوف الألماني «كانت» فكرة (الإله) قائلاً: «إنه لا يجِدُ أدلّةً شافية على وجوده» فهو ينكر «الصواب النظري» في الدين، ولكنه، في الوقت نفسه، يضطر إلى أن يسلّم «بالصواب العملي» في الدين، من الناحية الأخلاقية[2].

و«فولتير» أيضاً لا يؤمن بحقائق ما وراء الطبيعة، ولكنه يرى:

«أن أهمية الإله والحياة الآخرة عظيمة جداً، حيث إنهما أساسان لإقامة «المبادئ الأخلاقية». . وهو (فولتير) يرى أن هذه العقيدة وحدها كفيلة بإيجاد إطار أخلاقي أفضل للمجتمع. ولو أن هذه العقيدة زالت فلن نجد دافعاً للعمل الطَيب، وسيترتب على ذلك انهيار النظام الاجتماعي[3]».

إن الذين يرون أن «الآخرة» فكرة خيالية ينبغي أن يفكروا: كيف أصبحت فكرةٌ خيالية ذاتَ أهمية قصوى بالنسبة إلى واقع حياتنا؟.

لماذا لا نستطيع إقامة نظام اجتماعي سليم بدونها؟.

ولماذا تنهار قيم حياتنا عندما نتخلى عن هذه الفكرة؟.

هل يمكن أن تحتل فكرة خيالية هذه الأهمية الكبرى في الحياة؟.

---

(1) Religion without Revelation, p. 115

(2) Story of Philosophy, New York, 1954, p . 279.

(3) Windelband, History of Philosophy, p. 496.

هل وجدتم مثالاً ما في الكون لفكرة خيالية غير كائنة، أصبحت تتمتع بهذه الأهمية الحقيقة في الحياة، رغم أنها لا علاقة بها بواقعنا؟!.

إن حاجتنا الملحة إلى الآخرة لتنظيم الحياة، وإقامتها على أسس عادلة حقيقة، هي - في حد ذاتها - تأكيد بأن الآخرة من كبريات حقائق الكون، ولست أبالغ إذا قلت: إن هذا الجانب المنطقي من الاستدلال يثبت حقية هذه النظرية، على مستوى التحقيق المعملي العلمي..

❖ ❖ ❖

4 - الضرورة الكونية:

ولننظر إلى هذه القضية من جهة ثالثة، تلك التي أسميها: «الضرورة الكونية». لقد تكلمت في الصفحات الماضية عن وجود الإله في الكون؛ وقد ثبت جلياً أن الدراسة العلمية والفكرية هي التي تدعو إلى القول بوجود إله لهذا الكون. وبقي أن نسأل: لو كانت هناك علاقة بين الإله والإنسان لما كان بد من ظهورها، فمتى ستظهر هذه العلاقة جلياً؟.

أما بالنسبة إلى عالَم اليوم، فمن الممكن الجزم بأن هذه العلاقة لم تظهر بعد؛ فالرجل الذي لا يؤمن بالإله، يصيح قائلاً: «إنني لا أخاف من الله» ثم هو لا يصاب بأذى، بل قد يحصل على الزعامة، ويتسلم مقاليد الحكم!!.

أما الذين يبلغون رسالات الله، فإن السلطات توقف نشاطهم بحجة أنه «غير شرعي». وهنالك أيضاً مكاتب ومؤسسات تشغلها - ليل نهار - الدعايةُ لأولئك الذين يقولون: «لقد ذهب صاروخنا إلى القمر ولم يتشرف بلقاء إلهكم!»، وجميع أجهزة الدعاية الرسمية تدعم هذه المؤسسات، فإذا ما نهض أصحاب الدعوات السماوية برسالتهم ردهم علماء العصر قائلين: إنكم رجعيون تتخبطون في الظلمات!

يولد الأطفال، ثم يشبون، ويموتون.

تصل الشعوب إلى أوج مجدها، ثم تنقرض.

تقع الثورات، ثم تزول.

تشرق الشمس وتغرب، ولكن لا تظهر آيات وجود الله.

وفي هذه الحالة تطالبنا عقولنا وقلوبنا بالإيمان بوجود الله، أو إنكار هذا الوجود. فلو آثرنا الإيمان بالله، فلا مناص لنا من الإيمان بالآخرة. فليست هناك طريق أخرى لتبيين علاقة الإنسان بالإله.

لقد سلم (داروين) بأن لهذا الكون «خالقاً»، ولكن «تفسير الحياة» الذي قدمه لا يتضمن أدنى ربط بين الخالق ومخلوقه، كما أنه لا يحس بالحاجة إلى «نهاية» لهذا الكون، حاجة تدفعه إلى تقرير هذا الربط، ولست أدري كيف سيملأ (داروين) هذا الفراغ الكبير في نظريته البيولوجية؟ إن عقلي يستنكر إلهاً لا علاقة له بأمور الكون، ولا يشهده عباده في مظهر الخالق أبداً. وما أعجب «خالق داروين» ـ هذا الذي يأتي بكون عملاق هكذا، ثم ينهيه، دون إبداء الأسباب التي دفعته إلى هذا الخلق، ودون تعريف مخلوقيه بصفاته العديدة! !.

إننا لو أعطينا هذه المسألة الخطيرة شيئاً من تفكيرنا، فسوف نجد قلوبنا تصرخ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[1].

بل إننا لو تأملنا فسنراها مسرعة إلينا، سوف نراها ثقيلة، وشيكة الانفجار، كأنها الوليد في بطن الحامل. وما أقرب ما تفتك بنا ـ فجأة ـ ذات عشية أو ضحاها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾[2]».

رابعاً: الشهادة التجريبية

نواصل الآن بحثنا في الجانب الآخر من هذا الموضوع: (الآخرة)، وهو: هل هناك شهادة تجريبية تثبت الحياةَ بعد الموت؟.

إن أول دليل على الحياة الثانية هو حياتنا الأولى في حد ذاتها؛ فإن الذين ينكرون الحياة الثانية يقرون، بداهة، الحياة الأولى. والحياة، تلك التي ظهرت مرة

---

(1) غافر/ 59.

(2) الأعراف/ 187.

واحدةً، كيف تعجزُ عن إعادة العملية نفسها مرةً أخرى؟ هذه التجربة التي نعيشها نحن اليوم، كيف يَستحيل حدوثها ثانية؟؟ إنه لا شيء أكثر عداءً للمنطق والعقل الإنساني من أن نسلّم بوقوع حادث في «الحال»، وننكره في «المستقبل»!!.

ياله من تناقض عجيب.. إن الإنسان يدعي أن «الآلهة»، التي اخترعها هو بقدراته الخارقة لتفسير الكون، تستطيع إعادة وقائع الكون مرة أخرى، ولكنه يرفض بعناد تلك النظرية المماثلة التي يتقدم بها الدين، ويعبر السير «جيمس جينز» عن نظرية هؤلاء القوم قائلاً:

«لا غرابة إذا كانت أرضنا قد جاءت صدفة نتيجة بعض الحوادث. وإذا بقي كوننا على حاله الراهنة لمدة طويلة مماثلة (لمدة حدوثه صدفة) فلا نستبعد حدوث أي شيء يمكننا قياسه على الأرض[1]».

وترى نظرية النشوء والتطور أن جميع أنواع الحيوانات تنحدر من نوع بدائي واحد، وأنها ارتقت إلى ما هي عليه الآن خلال مراحل تطورية متطاولة. وبناءً على هذا التفسير الذي قام بوضعه «داروين» ـ صاحب هذه الفكرة ـ فإن «الزراف»، الموجود حاليا، كان في بدء الأمر من عشيرة الحيوانات الصغيرة ذوات الظلف، ولكن هذا الحيوان، من خلال العمليات الطويلة التي أعقبت التوالد والتناسل، والتغيرات والفوارق الصغيرة التي طرأت على الجنس الحيواني، استطاع أن يحصل على هذا الهيكل العظيم غير العادي، الذي نشهده اليوم..

يقول «داروين» موضحاً نظريته في الباب التاسع من كتابه:

«ومن الأمور الحتمية عندي أنه ـ إذا ما جرت العملية المطلوبة خلال زمن طويل، فمن الممكن أن نجعل من حيوان ذي ظلف عادي حيواناً مثل الزراف[2]..»

وهكذا اضطُّرَ جميعَ العلماء، الذين حاولوا شرح الكون والحياة، بطريق طبيعية، إلى أن يسلموا بأنه لو هيئت الأحوال نفسها ـ التي ساعدت في خلق الحياة

---

(1) Modern Scientifiv Thought, p. 3.

(2) Origin of Species, p .169.

الأولى ـ فمن الممكن حدوث الحياة ولوازمها مرة أخرى. إن إمكان حدوث الحياة الأخرى أقوى ـ نظرياً ـ من إمكان الحياة الأولى، الذي قد وقع فعلاً، وأي شيء نسلّم به أنه خلق الحياة ـ مهما كان هذا الخالق ـ فلا بد لنا من الإقرار بصفة بدهية بأن ذلك الخالق يستطيع بالتأكيد إعادة الحوادث نفسها التي أنشأها للمرة الأولى، ولا بد لنا من هذا الاعتراف، اللهم إلا إذا أنكرنا الحياة الأولى (الموجودة الآن). . فنحن نفقد جميع ـ الأسس التي قد نبني عليها دعائم إنكارنا للحياة الأخرى، عندما نسلّم بوجود الحياة الأولى!.

❖ ❖ ❖

خامساً: البحث النفسي:

لقد أثبت البحث النفسي، الذي ذكرناه آنفاً، أن جميع أفكار الإنسان ـ أو بعبارة أخرى: جميع خلايا مخه ـ تبقى بصفة دائمة. وهذا الواقع يثبت بصراحة أن عقل الإنسان ليس بجزء من جسمه، فإن جميع خلايا وأنسجة الجسم تتغير تغيراً كاملاً في بضعة أعوام، ولكن سجل اللاشعور لا يقبل أي تغير أو مغالطة أو شبهة على مرور مئات السنين. ولو كان هذا السجل الحافظ كائناً في الجسم فلا أدري أين مكانه منه؟ وفي أي جزء يكمن على وجه الخصوص؟ ولو كان في أحد أجزاء هذا الجسم، فلماذا لا يزول عندما تزول هذه الأجزاء بعد سنوات عديدة؟ ما أعجب هذا السجل الذي تتحطم جميع لوحاته تلقائياً، ولكنه لا يفنى ولا يزول!؟

إن هذه البحوث الجديدة في علم النفس تؤكد، بصفة قاطعة، أن الوجود الإنساني لا تنحصر حقيقته في ذلك الجسم المادي الذي يخضع دوماً لعمليات التحطم والاحتكاك والفناء، بل هو شيء آخر، غير هذا كله، وهو لا يفنى، بل يبقى مستقلاً، ولا يزول.

ويعلم من هذا أيضاً أن الحواجز وقوانين الزمن لا وظيفة لها إلا في عالمنا هذا، ولو كان هناك عالم آخر، يبدأ عند فناء جسمنا المادي، فهو يخلو تماماً من هذه الحواجز والقوانين. إن كل ما نباشره من الأفعال والأعمال الشعورية يخرج في نطاق هذه

القوانين والحواجز. ولو كانت هناك «حياة عقلية أخرى» ـ كما يعتقد فرويد ـ فمعناه أن هذه الحياة الجارية لن تفنى أبداً، بل ستستأنف مسيرتها بعد الموت، وسوف نكون على قيد الحياة، فإن هذا الموت لم يكن إلا نتيجة من نتائج هذه الحواجز والقوانين الزمنية. أما وجودنا الحقيقي ـ وهو اللاشعور، كما يقول فرويد ـ فهو حر مستقل عن هذه الحواجز والقوانين، و لا يطرأ عليه الموت، بل يأتي (الموت) على الجسد العنصري المادي، ويبقى اللاشعور ـ وهو الإنسان الحقيقي ـ كما هو. . ومثاله أن حادثاً وقع قبل ربع قرن، أو فكراً خطر ببالي قبل عشرين سنة، وقد نسيت كليهما قاطبة، ومع ذلك فإني أراهما في أحلامي اليوم. وتفسير ذلك عند علماء النفس هو أنهما كانا محفوظين في «اللاشعور» بأكمل صورهما و جزئياتهما، كأنما حدثا بالأمس!!.

وقد نتساءل هنا: وأين هذا الشعور؟ فلو كان منقوشاً على الخلايا ـ كالصوت مسجّلاً على الأسطوانات ـ فإن تلك الخلايا، التي سجلت ذلك الحادث قبل ربع قرنٍ، أو هذه الفكرة قبل عشرين سنة، قد تحطمت وزالت منذ سنين طويلة، ولا علاقة لها، في أي صورة، بجسدي الموجود الآن. فأين هذا الفكر من جسدي؟ تلك شهادة تجريبية تثبت ـ قطعياً ـ أن هناك عالماً آخر خارج أجسامنا المادية، مستقلاً بذاته، ولا يفنى بفناء الجسم، أو جزء من أجزائه.

سادساً: البحوث الروحية

أثبتت «البحوث الروحية» Psychical Researches الحياة بعد الموت، على المستوى التجريبي والعملي. إن الأمر الذي يدفعنا إلى إبداء مزيد مسن الإعجاب بهذه البحوث هو أنها لا تثبت «بقاءً محضاً» لروح ما، بل إنها تثبت أيضاً بقاء الشخصيات التي كنا نعرفها بذاتها، قبل أن تموت!!.

إن هناك خصائص كثيرة يتمتع بها الإنسان من قديم الأزمان؛ ولكنا لم نلق الضوء عليها إلا حديثاً. ومن هذه الخصائص: «الرؤيا»، التي تعد من أقدم مميزات

الجنس البشري. والحقائق المثيرة التي كشفها علماء النفس عن هذه الميزة لم يكن قدماؤنا على علم بها.

وهناك مظاهر أخرى درسناها أخيراً، وأجرينا بحوثاً وإحصاءات في مختلف أنحاء العالم حولها، وجاءت البحوث بنتائج غاية في الأهمية.

ومن هذه البحوث ما نسميه «بالبحوث الروحية».. وهي فرع من علم النفس الحديث، وهدفها محاولة الكشف عن المميزات الإنسانية غير العادية، وقد أقيم أول معهد لإجراء هذا النمط من البحوث عام 1882 م في إنجلترا. وبدأ علماء هذا العهد عملهم سنة 1889 م، بعد أن قاموا بمسح واسع النطاق على 17 ألفاً من المواطنين، ولا يزال هذا المعهد موجوداً باسم «جمعية البحوث الروحية». وقد انتشرت الآن معاهد كثيرة في مختلف بلدان العالم. وأثبتت هذه المعاهد، بعد بحوثها وتجاربها الواسعة النطاق، أن الشخصية الإنسانية تواصل بقاءها بعد فناء الجسد المادي، في صورة غريبة..

❖ ❖ ❖

كان وكيل متنقل لشركة أمريكية يسجل طلبات عملائه، جالساً في حجرته في فندق سانت جوزيف، بولاية ميسوري، فإذا به يشعر أن أحداً يجلس عن يمينه. ويقول الرجل: «فحوّلت وجهي بسرعة فوجدت أنها أختي!».

وكانت أخته هذه قد ماتت منذ تسع سنين.. وبعد برهة اختفى وجه أخته. وكان الوكيل قد أفزعه هذا الحادث، لدرجة أنه، بدلاً من أن يستأنف جولته، قرر مغادرة (ميسوري) إلى بيته في بلدة (سانت لويس).

وفي البيت ذهب يقص على أقربائه الحادث بالتفصيل كما رآه، وعندما وصل أثناء كلامه إلى هذه الجملة: «وشاهدت على خدها الأيمن جرحاً واضحاً أحمر اللون».. فإذا بأمه تصرخ وتقوم مرتعدة، وهي تقول: «إنني أنا السبب في ذلك الجرح الذي رأيته، وقد حدث ذلك عن غير قصد مني، وقد ندمت لذلك الحادث

وآلمني المنظر، فأزلت كل آثار الجرح، ووضعت في مكانه شيئاً من البودرة !»
وأضافت الأم قائلة «ومنذ ذلك اليوم لم أفض بهذا السر إلى أحد أبداً[1] . »

❖ ❖ ❖

إن هذه الوقائع وأمثالها لا تختص بأمريكا وأوربا، وإنما تحدث بكثرة في كل منطقة من العالم. ولكن حيث إن أكثر البحوث العلمية الحديثة قد أجريت في تلك المنطقة من العالم، فلا بد لنا أن نأتي بالشهادات التجريبية من تلك المناطق أيضاً. ولو كان عند بعض علمائنا شيء من الطموح والثقة بالنفس، وبدؤوا هذا العمل في مناطقهم، فمن الممكن أن نجمع شهادات لا حصر لها في بلادنا الآسيوية والإفريقية. وأنا شخصياً على علم بكثير من وقائع مماثلة، تدعم هذه النظرية بصفة مدهشة، ولكنا، بكل أسف، تعوزنا الهمم للقيام بمثل هذه البحوث العلمية، وما يلزمها من قدرة على الإنفاق، وبذل الوقت المطلوب.

❖ ❖ ❖

إن هناك وقائع لا تحصى، من هذا القبيل، وهي تؤكد وجود «شخصيات معروفة» بعد موتها. ولا سبيل أمامنا لاعتبار هذه الوقائع والحقائق: «أوهاماً وخيالات»، كما اعتاد بعض الناس القولَ ببساطة في مثل هذه المسائل ؛ فإن سر الجرح على خد الفتاة الأيمن - وقد ماتت منذ حقبة من الزمن - لم يكن أحد يعرفه غير الفتاة وأمها . .

❖ ❖ ❖

وهناك وقائع أخرى تؤكد بقاء الحياة بعد الموت، وهي وقائع تتعلق بأولئك الذين نسميهم: «بالمتحركين آلياً» Automatists[2] . ويطلق هذا الاسم على الذين

(1) Human Persomality and its Survival of Bodily death. F. W. Myers. New York. 1903, Vol. II, PP. 27 - 30.

(2) ربما كان من بين هؤلاء من نصفهم بلغتنا الدارجة بأنهم: (ركبهم الجن)، فهم مسلوبو الإرادة، يتكلمون بلسان غيرهم من العفاريت. (المراجع).

تصدر عنهم أفعال رغم إرادتهم الذاتية، وهذه الوقائع تدل على أن أرواحاً - لأشخاص قد ماتوا - تسكن في أجسام هؤلاء الأحياء، ويكشف هؤلاء الناس، أثناء أعمالهم عن جزئيات لا يعرفها إلا الموتى، أصحاب الأرواح . . ثم يظهر، بعد شهور وسنين، أن تلك الجزئيات كانت حقائق واقعية . .

وهناك أيضا رجال يتكلمون ويكتبون في آن واحد، ولا يكون للمكتوب أية علاقة بالقول، كما أن الكاتب لا يعلم بنفسه ماذا كتب، إلا بعد الاطلاع على ما كتبه، «وهذا الواقع يثبت أن روحاً - غير روحه الشخصية - تسكن في جسده، وهي التي تجعله يكتب[1]».

❖ ❖ ❖

إن كثيرين من علمائنا المحدثين يرتابون في قبول هذا الاستدلال، كما يقول «براد»:

«إن أي فرع من فروع العلوم الحديثة لا يؤكد إمكان الحياة بعد الموت، اللهم إلا ذلك الاستثناء المشتبه فيه من البحوث الروحية[2]».

بيد أن الاستدلال يشبه عندي أن أقول: «إن «التفكير» استثناء مشتبه في أمره، لأن أحداً من ملايين الحيوانات على سطح الأرض لم يصدّق هذه الظاهرة غير الإنسان!!».

❖ ❖ ❖

إن بقاء الحياة وفناءها يتعلق بعلم النفس، لكونه مسألة نفسية بحتة، فلا تصلح دراسته إلا في علم النفس. أما أن نبحث عنه في أقسام أخرى من العلوم، فهو بمثابة أن نطالب علْمَيْ (النبات) و (الفلزات) بإثبات ظاهرة التفكير. ولا نستطيع - أيضاً - أن نجعل دراستنا داخل الجسم الإنساني حَكَماً في هذه المسألة الخطيرة، وسببه أن الجزء

---

(1) A philosophical Scrutiny of Religion, pp. 407-10.

(2) Religion, Philosophy & Psychical Researches, London 1953, p. 235.

الذي ندعي بقاءه واستمراره في الحياة ـ وهو الروح ـ لا يوجد في هذا الجزء المادي، بل في جسم آخر سواه.

وهذا هو الأمر الذي دفع كثيرين من علمائنا إلى الاعتراف بأن «الحياة بعد الموت» واقع حقيقي، بعد أن قاموا بأبحاث علمية طويلة غير منحازة. وقد ألقى «البروفسور دوكاس»، وهو أستاذ الفلسفة بجامعة براون، ضوءاً على الجوانب النفسية والفلسفية من مسألة الحياة بعد الموت، في الباب السابع عشر من كتابه. والدكتور دوكاس لا يؤمن بالحياة بعد الموت كعقيدة دينية، وإنما وجد ـ أثناء بحوثه ـ شواهد كثيرة، اضطر ـ على أثرها ـ أن يؤمن بالحياة الآخرة، مجردة عن قضايا الدين. وهو يكتب في آخر الباب السابع عشر من كتابه قائلاً:

«لقد قام رهط من أذكى علمائنا وأكثرهم خبرة بمطالعة الشهادات المتعلقة بالمسألة، وفحصوها بنظرة نقد ثاقبة، وقد توصلوا آخر الأمر إلى أن هناك شواهد كثيرة تجعل فكرة «بقاء الروح» نظرية معقولة، وممكنة الحدوث.. وهم يرون أنه لا يمكن تفسير تلك الشواهد إلا على هذا النحو. ومن هؤلاء الكبار الذين قاموا بهذه البحوث نستطيع أن نذكر: الأساتذة ألفريد راسل واليس، والسير وليام كروكس، وف. و. هـ. مايرز، وسيزار لومبرازو، وكميل فلاماريون، والسير أوليفر لوج، والدكتور ريتشارد هوجسن، والمستر هنري سيدويك، والبروفيسور هيسلوب».

ويستطرد الدكتور دوكاس قائلاً:

«ويتضح من هذا أن عقيدة بقاء الحياة بعد الموت ـ التي يؤمن بها كثيرون منا كعقيدة دينية ـ ليس من الممكن أن تكون واقعاً فحسب، وإنما لعلها هي الوحيدة، من عقائد الدين الكثيرة، التي يمكن إثباتها بالدليل التجريبي. ولو صح هذا فمن الممكن أيضاً أن نجد معلومات قطعية في هذا الموضوع، بغض النظر عن الأفكار التي افتراها رجال الدين عن نوعية الحياة بعد الموت. ولن نحتاج حينئذ إلى الإيمان بالوجهة الدينية من هذه النظرية[1]».

---

(1) A Philosophical Scrutiny of Religion, p. 412.

ويكاد الدكتور دوكاس ـ بعد الوصول إلى هذا الحد من وضوح قضية الحياة بعد الموت، ثم الجحود بوجهتها الدينية ـ أن يكون مثله مثل الفلاح الذي يصر على أنه لا سبيل إلى الحديث بينه وبين أحد أقربائه، الذي يسكن في بلدة نائية.. فإذا وصلت خط التليفون مع قريبه هذا في البلدة النائية، وأعطيته السماعة.. إذا به يقول لك، بعد فراغه من الكلام: «ليس من الضروري أنه كان صوت قريبي، فمن الممكن أنه كان يخرج من إحدى الماكينات!»

❖ ❖ ❖

obeikandl.com